

٣ - حجة تاريخية

للدكتور جواد علي

وبعد سقوط القدس على أيدي البابليين عام ٥٨٦ قبل الميلاد سبي « نبوخذ نصر » المبرانيين وأخذهم معه إلى العراق إلى أرض بابل وتعرف هذه الحادثة في التاريخ العبراني باسم « السبي » وقد استولى « نبوخذ نصر » أربع مرات على القدس ، المرة الأولى في أيام الملك « يهوياقيم » سنة ٦٠٢ قبل الميلاد^(١) وكان هذا الملك ملك « يهوذا » وهو ابن « يوشيا » وأخو « يهوآحاز » الذي خلفه في الملك وكان اسمه « الياقيم » فقيره فرعون « نخو » إلى يهوياقيم عند ما أجلسه على الكرسي^(٢) وكان تحت الجزية لفرعون أربع سنين^(٣).

ثم سارت عليه جيوش ملك بابل نبوخذ نصر فاستمبده ثلاث سنين « ثم عاد فتمرد عليه فأرسل الرب عليه غزاة الكلدانيين وغزاة الآراميين وغزاة الموثيين وغزاة بني عمون وأرسلهم على يهوذا ليبيدها حسب كلام الرب الذي تكلم به عن يد عبده الأنبياء^(٤).

ثم ما لبث أن أخذه نبوخذ نصر وقيده بسلاسل من نحاس ليرسله إلى بابل^(٥) ثم تولى ابنه « يهوياكين » مكانه وفي أيامه تقدمت جيوش « نبوخذ نصر » للمرة الثالثة ودخلت القدس وأخذت الملك وأمه وعبده وخصميانه وأكثر اليهود أسرى إلى بابل ومعه ما كان عنده من خزائن وما كان في الهيكل من أموال وقد فسرت التوراة ذلك لأنه عمل الشر وعمى أو أسر به وسار على خطة أبيه^(٦) وعين نبوخذ نصر « منيا » عم

(١) قاموس الكتاب المقدس ٢ ص ٤١٢ .

(٢) الملوك الثاني إصحاح ٢٣ آية ٣٣ وما بعد .

(٣) الملوك الثاني إصحاح ٢٣ آية ٣٥ .

(٤) الملوك الثاني إصحاح ٣٤ آية ٣ وما بعد وأيام الثاني إصحاح ٣٦

آية ٨ وأرس ٢٢ ، ٢٦ ، ٣٦ .

(٥) أيام الثاني سفر ٣٦ آية ٦ ودا سفر أول آية ٢ .

(٦) الملوك الثاني سفر ٢٤ آية ٧ وما بعد . اد سفر ٢٢ آية ٢٤

وما بعد .

« يهوياكين » بدلا منه وسماه « صدقيا »^(١) .

وفي أيام هذا الملك كذلك تقدم نبوخذ نصر هو وجيشه وحاصروا القدس ثم قبضوا على الملك وأخذوه أسيراً إلى بابل وقيده بسلاسلين^(٢) ثم أحرقت القدس والهيكل في السنة التاسعة عشر من حكم « نبوخذ نصر » وأخذ ما كان قد تبقى أسرى إلى بابل .

وعين البابليون « جدليا بن اخيقام بن شافان » على من تبقى من اليهود وقد جاء هذا الملك نداءً إلى البقية الباقية من اليهود وناشدهم فيه بوجوب الإخلاص للكلدانيين وامتنال أمره ، ولما قتل خافه كل من في المملكة فهرب كل اليهود إلى مصر حيث فضلوا البقاء هناك^(٣) .

ولما قضى الفرس على مملكة البابليين دخل اليهود في حكمهم وأصبحوا لهم أتباعاً . وغدت فلسطين جزءاً من مملكتهم والواقع وكما تحدثنا التوراة أن المبرانيين كانوا ضد أي نوع من أنواع الحكم وأنهم لم يرضوا أن يكونوا لهم مملكة لأن سفة البداوة كانت هي الصفة الغالبة عليهم ، وأنهم حتى في أيام مملكة شاول وداود وسابان وهي المملكة التي يتنفي بها الصمونيون لم يكونوا ينظرون إليها نظرة ارتياح وأن عهدهم لم يكن يخلو من اضطراب وثورات ولذلك كانوا عرضة للخضوع إلى الحكم الأجنبي .

ولذلك لم يكن ملوك إسرائيل أو يهوذا في الحقيقة سوى رؤساء قبائل أو أمراء مقاطعتين متباعدتين تابعتين لحكم الأجنبي فحكمهم المصريون وأصبح ملوك المملكتين الصغيرتين « مملكة إسرائيل » و « مملكة يهوذا » يمينون تمييزاً حتى أنهم كانوا يتركون أسمائهم ويتناولون أسماء جديدة يندقها عليهم فراعنة مصر . ثم ملوك الكلدانيين فيما بعد وبعد انقراض دولتهم بسقوط « القدس » أصبحوا تحت حكم الدول الأجنبية تماماً . ولم يجد المفكرون من ذلك غمضة كما نقرأ في الكتب العبرانية .

ومما يجدر ذكره هو أن المبرانيين لم يكونوا في يوم من الأيام راضين عن ملوكهم وإذا قرأنا التوراة زرى أن الملوك كانوا عرضة لنقمة رؤساء الشعب والكتاب البارزين وأن الأنبياء كانوا

(١) مل سفر ٢٥ آية ٧ .

(٢) مل سفر ٢٥ آية ٧ .

(٣) الملوك الثاني سفر ٢٥ آية ٢٤ وما بعد .

يقرر الزحف على البادية والحجاز بإشارة من أرميا وكانت المارك شديدة بين الطرفين .

وقد تولى العرب منذ هذا العهد حتى الآن أمر الدفاع عن أرض فلسطين فكافحوا الحكم الروماني وحاربوا البيزنطيين ولما قامت جموع العرب في الحجاز تحت راية الإسلام محرو البلاد العربية اشتركت القبائل العربية وأكثرها من كلب وطم وجذام ومن استعرب من سكان فلسطين مع المسلمين في مقاتلة البيزنطيين إخوانهم في الدين ، لأنهم كانوا يشعرون بشعور قومي وبشعور الرابطة التي كانت تربطهم بشبه جزيرة العرب وتقدمت الجيوش الإسلامية في أراضي سورية وتمكنت من طرد الروم^(١) . وفي ذلك دليل كاف في دحض حجج الصهيونيين .

وقد كان المسلمون والنصارى سكنة فلسطين يحاربون سوية جيوش الصليبيين الذين حاولوا باسم الدين احتلال فلسطين ولم يشترك أى يهودى في مقاومة هؤلاء الغزاة وقد اشترك العرب مسلمون ونصارى في مكافحة العثمانيين وتحرير فلسطين من حكمهم وفي النهضة العربية فأى حجة تاريخية يتذرع بها الصهيونيون إذاً في حقهم التاريخي القديم في فلسطين وهم لم يقاتلوا في سبيل الأرض المقدسة ولم يحاربوا الوقوف أمام الآشوريين والبابليين والرومان عند ما كانوا يدخلون القدس ويخربون الهيكل وبيت داود .

وقد ادعى الصهيونيون بأن العبرانيين كانوا يمنون دائماً إلى العودة إلى « أرض إسرائيل » وأنهم ما فتئوا يتذكرون أرض الأجداد والآباء وأنهم يريدون إحياء ثقافتهم في تلك الأرض الموعودة ولكن التوراة والتاريخ تكذب أقوالهم هذه أيضاً ، فإن العبرانيين الذين كان البابليون قد أخذوهم أسرى إلى بابل ثم سمح الفرس لهم بالعودة إلى أرض فلسطين بعد انقراض حكومة بابل ، في أيام « كورش » فضلوا الإقامة في أرض المراق على الذهاب إلى « أرض إسرائيل » ولم يلب نداء زعماء اليهود وأنبيائهم غير القليل ، لأنهم وجدوا أنفسهم في أرض طيبة وفي موطن ملاءم وقد بقوا في المراق حتى الآن^(٢) وقد تولى بعضهم مناصب

(١) راجع كتب الفتوحات الإسلامية والجزء الثاني من كتاب « دراسات إسلامية » للسفوق « بيكر » في بحث فلسطين .

(٢) Nial Dominus P. 15. (٢)

يتنبأون دائماً بحلول غضب الله على هؤلاء الملوك ، ولم يظهرها كراهية للملوك الفاتحين وهذا ما يفند رأى الصهيونية في الدولة اليهودية القديمة .

ويلاحظ أيضاً أن العبرانيين القدامى قد استماتوا بالعرب وبغريم في الدفاع عن أرض فلسطين فلما حاصر الملك « سنحريب » مدينة القدس في أيام « حزقيا » « Hezekiah » لم يتمكن اليهود من حماية أنفسهم تجاه الآشوريين فاستماتوا بالعرب وطلبوا منهم المساعدة لخلاص القدس وقد سجل سنحريب في أخبار حملته لسنة ٧٠١ قبل الميلاد . وكان اسم الأمير العربي الذي أبى نداء الوطن فدافع عن اليهود وقاوم الآشوريين مقاومة عنيفة أزجحت الملك « سنحريب » هو الملك العربي « مصطفى » وملك آخر عربي كذلك هو ملك مقاطعة « ملوخاب » ويفضل هذه المساعدة الثمينة تمكن العبرانيين من الوقوف أمام الآشوريين .

وقد دافع العرب صراً كثيرة عن أرض فلسطين في أيام الآشوريين والبابليين واليونان والرومان وقد تكبدوا من جراء ذلك خسائر فادحة ومما يذكر هو أن اليهود كانوا بالنظر إلى عدم استطاعتهم الوقوف أمام الأجانب قد اضطروا إلى الاتفاق مع الإمارات العربية لاستئجار جيوش عربية لتتولى الدفاع عما تبقى من الأراضي في أيدي العبرانيين . ولم يبق بالطبع بمد السبي في فلسطين جاليات كبيرة من اليهود ، بل أصبح اليهود أقلية خاضعة لحكم الأكرية تسكن في أماكن معينة تحت حماية الفرس فاليونان فالرومان ثم البيزنطيين .

ولما احتل البابليون في عهد ملكهم نبوخذ نصر القدس كان العرب في ذلك العهد يمتلكون أكثر أراضي فلسطين مثل أرض موآب وأدوم وفلسطين الجنوبية وكانت عزيمة العبرانيين خائرة والنبي « أرميا » يحذر الناس من المقاومة ويطلب منهم الاستسلام^(٣) وكانت نتيجة ذلك تخريب بيت القدس والهيكل وأخذ اليهود أسرى إلى بابل ، ومنذ ذلك العهد فقد اليهود عملياً كل كيان لهم في فلسطين .

أما العرب فقد دافعوا دفاعاً مجيداً أزجج نبوخذ نصر وجملته

(١) أرميا سفر ٢٩ آية ٣ فا بد و ٢٥ آية ٩ فا بد و ٢٢ آية

٩ فا بد .

للـيهود « A firist Jewish national Home »^(١) .
ومما يذكر أن اليهود الذين عادوا من السبي ما كادوا
يشرعون ببناء السور والمهيكل ومحصين القدس حتى ثار سكان
فلسطين عليهم وهم الأكثرية فأعلنوا الحرب واشترك في ذلك
« سنبلط وطوبيا والعرب والمونيون والأشوديون »^(٢) وجثم
العربي وبقيّة شعوب فلسطين^(٣) .

بني السور ومحصن العبرانيون في القدس وتكون مجتمع
يهودي صغير في هذه البقعة بيهود « عزرا » و« نحما » وقد أمر
« هذان الزعمان بأن تكون القدس مستعمرة يهودية بكل معنى
الكلمة تتكلم اللغة العبرية ومحترم « الشبات » « السبت »
وتحتفظ بقوانين المنصرية فأمر العبرانيون الذين تزوجوا بزوجات
أجنبيات من الوطنيات بطلاقهن على الطريقة التي اتبعت فيها بعد
وبعد أثنى سنة في قوانين « نورنبرك »^(٤) .

لم يستطع هذا « الوطن القوي » الذي خلقه « عزرا »
و « نحما » ولم تتمكن القوانين الصارمة التي فرضها على
العبرانيين من خلق ذلك الوطن فظل صوت اليهود خافتاً لم يرتفع
في فلسطين على الرغم من المساعدات القيمة التي قدمها لهم « ملوك
الفرس » الذين تجاهلوا رغبات الأكثرية من الوطنيين ولم يبذل
العبرانيون أنفسهم لخلق ذلك الوطن لأنهم لم يفكروا تفكيراً
سياسياً بل كانت كل جهودهم متوجهة نحو الاحتفاظ بديانة إله
إسرائيل ، ما خلا فترات قام بها بعض الزعماء بالدعاية إلى المنصرية
لم تلاق غير رواج مؤقت .

جوار علي

(١) Mr Slod George, Quoted in the Royal Commission
Repot «1939» P. 24. Nisi Domminius, P, 16.

(٢) نحما إصحاح ٤ آية ٧ فا بعد .

(٣) نحما إصحاح ٦ آية ١ فا بعد .

(٤) Nisi Dominus. P. 14'

ظهر حديثاً كتاب
أحمد عربي

عالية في الحكومة ، كما أن اليهود الذين هاجروا إلى مصر فراراً
من حكم نبوخذ نصر فضلوا البقاء في مصر على الذهاب إلى
فلسطين وفي ذلك دليل على عدم صحة أقوال الصهاينة في وجود
الحس السياسي والوطن القومي عند العبرانيين .

وأما النداء الذي وجهه الملك « كورش » إلى رؤساء إسرائيل
والنداء الذي وجهه الأنبياء فإنه لم يكن ذا طابع سياسي بل كان
يحمل الطابع الديني المهود فاليهود الذين ذهبوا إلى القدس لبناء
« الهيكل » والذين ساعدوا « كورش » بتقديم كل المساعدات
اللازمة والذي أمر بإعادة ما كان قد أخذه « نبوخذ نصر » من
ذهب وفضة من خزائن الهيكل لم يحاولوا تكوين مملكة
سياسية بل ذهبوا لبناء « بيت الرب إله إسرائيل »^(١) ولذلك
كانت الحكومة التي كونها العبرانيون في القدس حكومة دينية
تحت حكم الفرس ومما يذكر أن « عزرا » الذي فوضه الملك
« ارتحشتا » أمر بقيادة رجال السبي وإعادة بناء الهيكل أخذ كل
وسائل القوة لإجبار اليهود على العمل بشرائع الرب وعلى العبادة
والتوبة^(٢) وقد كان من نتيجة ذلك اتفاق جماعة من الفلسطينيين
ديانة العبرانيين .

ومع ذلك فإن الأرض التي نزل بها اليهود بعد السبي كانت
صغيرة جداً أصغر من أرض « مملكة يهوذا » الصغيرة ذاتها
مركزها القدس وتمتد في الشمال إلى حدود « الرملة » وإلى
« حبرون » في الجنوب . وإلى حدود الأردن في الشرق والسهول
في الغرب^(٣) .

وكانت منطقة « السامرة » التي لا تبعد إلا قليلاً عن مدينة
« نابلس » مأهولة بسكان من العراق كان الأشوريون قد نقلوهم
إلى هذا المكان ومن السامريين الذين لم يعترفوا بزعامه رجال
الكهنوت في القدس واختلفوا عنهم . ثم أصبحوا من أشد
الناس خصومة لهم ، فقارموهم وحاربوهم مع أنهم من أصل عبراني
وهذا ما يدل على أن اليهود لم يكونوا على رأي واحد حتى في
إحياء الهيكل وإعادة الدولة اليهودية بشكل جديد سماه « المستر
لويد جورج » والتقرير الذي وضته اللجنة الملكية التي أرسلت
في عام ١٩٣٦ للتحقيق في حوادث فلسطين « بأول وطن قومي

(١) راجع أسفار عزرا .

(٢) عزرا إصحاح ٧ آية ١٢ فا بعد .

(٣) Nisi Dominus. P, 15